مع غزّة

آدم فتحي

قيامة فلسطينيّة من أجل إنسان جديد

تقف هذه الزاوية مع مبدع عربي في أيام العدوان على غزّة وكيف أثّر على إنتاجه وحياته اليومية، وبعض ما يودّ مشاركته مع القرّاء. «ما يحدث من عدوان إبادة على غزّة هو سقوط مدوّ لهيكل البناء القيميّ الإنساني» يقول الشاعر التونسي لـ «العربي الجديد»

بطاقة

شاعر ومترجم وإعلامي تونسي من مواليد عام 1957. من مجموعاته الشعرية: «سبعة أضمار لحارسة القلعة» (1982)، و«أغنية النقابي الفصيح» (1986)، و«معلّقة القدس في كفّ بغداد» (1991)، و«نافخ الزجاج الأعمى أيّامه وأعماله» (2011). ومن ترجماته إلى العربية: «اليوميات» (1999) لبودلير، و«المياه كلّها بلون الغرف» (2003)، و«تاريخ ويوتوبيا» (2010)، و«مثالب الولادة» (2015)، و«رسالة في التحلّل» (2021) لـ إميل سيوران.

تونس ـ **العربي الجديد**

■ ما الهاجس الذي يشغلك هذه الأيام في ظل ما يجري من عدوان إبادةٍ على غزّة؟

هواجسي عصيّةٌ على التحديد، ملتهبة، متفجّرة، يتنازعها الذهول والوجع والقهر والحرقة، مع شيءٍ من «الديغافو» الذي يفوق الاحتمال. لقد ورثتُ مع أبناء جيلي عدوان المستعمرِ علينا منذ عقود. إلا أنّ البشاعة والفظاعة والساديّة بلغت درجات تراجيديّة، بل قياميّة غير مسبوقة هذه المرّة. إنّ ما يحدث من عدوان إبادةٍ على غزّة هو عدوان إبادة على الجميع، وكارثة على مجمل مكتسبات البشر السياسيّ وسقوط مدوٍّ لهيكل البناء القيميّ الإنساني. وما كان لكلّ هذا السقوط أن يحدث لولا أنّ الإنسان يعيش هذه الأيّام تحوّلاً من أفدح «تحوّلاته». لقد أصبحنا فعلاً أمام ذاك الكائن الذي أطلق عليه سيوران اسم «الإنسان المُسَوَّس»، الذي لن نقول في حضوره «أنا موجود»، دون أن تحمرّ وجوهنا خجلاً. من ثمّ الإحساس بالخزي. خزي الجميع، متكلّمين وصامتين ومتفرّجين ومتآمرين ومُثبّطين وعاجزين وقادرين على الفعل متقاعسين عنه. ولعلّ أملنا الوحيد أن تتيح القيامة الفلسطينيّة الفارقة للإنسانية قاطبة عبور الروبيكون في اتّجاه الإنسان من جديد.

■ كيف أثّر العدوان على حياتك اليومية والإبداعية؟

أن تكتب يعني أن تضع جسدك على الورق. أن تكتب المكان يعني أن تستحضر جسد المكان على الورق نفسه أيضاً. هكذا أفهم الكتابة. لكنّ الورق أصبح أكثر احتراقاً بجسدي وبجسد المكان هذه الأيّام. ثمّة نصّ اقتحم عليّ ورشتي منذ السابع من أكتوبر أحاول أن أتحاور فيه مع حرقتي الشخصيّة. أكتبه في ضوء الرسائل التي تصل إليّ من هناك، من الأصدقاء والأحبّة، وفي ضوء الصور المتهاطلة من شاشات التلفزيون، لكنّني لا أستطيع الفكاك من هذا النصّ. لست قادراً على إتمام أيّ نصّ هذه الأيّام. كلّ شيء شظايا. كلّ شيء ركام. كلّ شيء يتصاعد منه لهبٌ ودخانٌ. حتّى الصور. خاصّة الصور. ما من صورة إلاّ وهي تحرق وتحترق. تحرق الشاشات، تحرق العيون. الريموت كنترول نفسُه يحترق بالصور ويحرق أيدينا ما إن نمسك به لنعبر من شاشة إلى أخرى بحثاً عن جرعة أمل.

■ إلى أي درجة تشعر أن العمل الإبداعي ممكنٌ وفعّال في مواجهة حرب الإبادة التي يقوم بها النظام الصهيوني في فلسطين اليوم؟

لا يمكننا مواجهة حرب الإبادة إلاّ عن طريق إثبات الوجود، ونحن لا نثبت وجودنا إلاّ إذا عرفنا كيف نَقُولنا إبداعيّاً. من ثمّ إصرار المبدعين على الإبداع حتّى حين يكونون في فم الوحش. فكيف ونحن نكتب على طاولةٍ تتحرّك على زلزال أو في فوهة بركان. ولا نملك غير اللغة، لغة اصطدمت بجدار الصمت أمام وابل الصور المباشرة التي تكاد العين لا تصدّقها لهول بشاعتها من جهة بطش الجلاد الصهيونيّ، ولفرط إعجازها من جهة الصمود الفلسطيني. ليس أمامنا إلاّ أن نكتب. لقد ذهب بروست في زمنه إلى أنّ الأحزان ما إن تتحوّل إلى أفكار حتى تفقد جزءاً من تأثيرها الضار على الوجدان، وأنّ القراءة والكتابة قد تساعد أحياناً على التغلّب على الألم. أمّا نحن، أبناء هذه المرحلة، فإنّ تحويل الأحزان إلى أفكار قد لا يخفّف من ألمنا، لكنّه قد يساعد على تحويل ذلك الألم إلى أمل.

> الريموت كنترول نفسُه يحترق بالصور ويحرق أيدينا
>
> ورثتُ مع أبناء جيلي عدوان المستعمرِ علينا منذ عقود

■ لو قيّض لك البدء من جديد، هل ستختار المجال الإبداعي أم مجالاً آخر، كالعمل السياسي أو النضالي أو الإنساني؟

لو بدأت من جديد لاخترت الطريق نفسه. لا حدود للمبدع إلاّ الأفق. أمّا السياسيّ فحدوده الممكن. من ناحية أخرى كنت دائم الاقتناع بأنّ الكتابة نضالٌ وفعل سياسيّ بامتياز. لكنّ الكاتب ليس موظّفاً عند أحد، لا عند فكرة ولا عند حزب ولا عند زعيم ولا حتّى عند الشعب. السياسي يجامل شعبه «العظيم» وينافقه ويكيل له المديح إذا أراد أن يكسب أصواته. أمّا الشاعر فهو يحبّ شعبه، لذلك هو غير معنيّ بمجاملة الشعب. قد يخرج على شعبه إذا رآه ذلّ وخنع وتخاذل، تماماً كما فعل أبو القاسم الشابّي حين رأى ما رأى، فتمنّى أن يكون حطّاباً يهوي على الجذوع بفأسه، صارخاً في شعبه: «أنت روحٌ غبيّةٌ تكرهُ النور وتقضي الدهور في ليل ملسٍ/ أنت لا تدرك الحقائق إن طافت حواليك دون مسٍّ وجسٍّ...»، مضيفاً: «أيّها الشعبُ أنتَ طفلٌ صغيرٌ لاعبٌ بالتراب والليلُ مُغْسٍ/ أنتَ في الكون قوّةٌ لم تمسسها فكرةٌ عبقريّةٌ ذات بأسٍ...».

■ ما هو التغيير الذي تنتظره أو تريده في العالم؟

لا أنتظر شيئاً من العالم بل أنتظر أشياء من الإنسان. أنا أحبّ عبارة غاندي: «كُن أنتَ التغيير الذي تريد أن تراه في العالم».

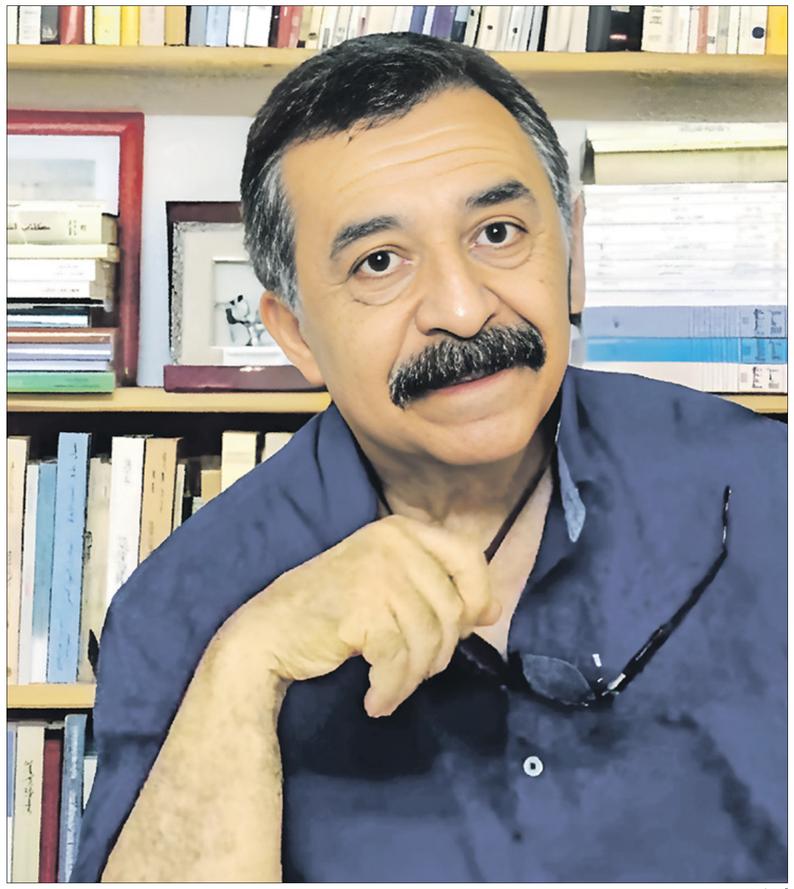
آدم فتحي

■ شخصية إبداعية مقاومة من الماضي تودّ لقاءها، وماذا ستقول لها؟

أُفضّل التقاء شخصيّات من المستقبل. ممّا وراء الأفق. أمّا إذا تحتّم التقاء شخصيّة من الماضي فلينكن برتولد بريخت الشاعر والمسرحيّ الألمانيّ الذي قال: «لمن يقولوا كان ذلك في أزمنة عصيبة. بل سيقولون: لماذا صمت الشعراء؟». وهو الذي سأل: «هل سننشد في الأزمنة المعتمة، أيضاً؟ أي نعم، سننشد، نُشيد العتمة». سأطلب منه أن ينظر إلى زمننا هذا، وإلى ما يحدث في غزّة تحديداً، في ضوء الصمت المطبق الذي يغطّ فيه الكثيرون، وأن يقول لي إن كان سيعيد كتابة تلك الشذرة كما هي، أم أنّه سيقلب السؤال: «هل سننشد في الأزمنة المقاومة، أيضاً؟»، كي يكون الجواب: «أي نعم. ننشد، نشيد المقاومة».

■ كلمة تقولها للناس في غزّة؟

غزّة هي التي تقول كلمتها اليوم لنا وللعالم. وليتنا نسمعها جيّداً. وليتنا نتمثّل كلمتها وندرك معانيها.

■ كلمة تقولها للإنسان العربي في كلّ مكان؟

إذا كان لابدّ من كلمة فلتكن هذه:
«...بما يتبقّى على الأرض من دمِنا
في الحجارةِ والعُشْبِ
أكْتُبُ هذي القصيدةْ
بما يتبقّى من الروح في الرِّيحِ أكتبُ
من بلدٍ في فمِ الذئبِ أكتبُ
لكنْ أطْفئْتُكُمْ
لا أنا حقلٌ لا بلادي طريدةْ
متى أطبقَ الذئْبُ فكّيْهِ
أشْعَلْتُ ذِكْرَى شهيدِ
وحُلْمَ وليدِ
وقلتُ لزوجي ارقُصي
لحَمْتِي مُرّةٌ وعِظامي شديدةْ
علي محنةٍ منذ سِتّينَ
والنِّيبُ حوْلي
أرُشُ السنينَ على صَبْرِ أهلي
كأنّي أهشُّ على بقراتٍ شريدةْ
تعلّمْتُ من مِحْنِي
أن أقودَ الحكاياتِ حتى نهاياتِها
كي أعلّمَ هذي النهاياتِ
كيف تكونُ سعيدةْ
ولِي أمَلٌ كلّما جفّ أرضعتُهُ
لنّ الياسَ من يأسهِ، هاتفاً:
فرحةُ النصْرِ ليست بعيدةْ
فرحةُ النصْرِ ليست بعيدةْ...».

■ حين سُئلت الطفلة الجريحة دارين البيّاع التي فقدت معظم أفراد عائلتها في العدوان: ماذا تريدين من العالم، أجابت «رسالتي للناس إذا بيحبوا دارين يكتبوا لي رسالة أو أي إشي».. ماذا تقول لدارين ولأطفال فلسطين؟

أحبّكم.

إطلالة

لأنّ ما ترى هو زمنٌ وثائقي لا خيال

أنتَ وليُّ هذا الدّم

أطفال يقفون فوق أنقاض البيوت التي دمّرها العدوان في حيّهم، مخيّم المغازي وسط قطاع غزّة، 29 آذار/ مارس 2024 (Getty)

> تكثر الانفجارات في الرُّوح، حتى لا تعود أنّ ما كنتَ. أهلكَ في الجحيم، وأنتَ الآن نسخةٌ شَرِسة من نفسكَ، تصرخ: مَا عشتُ وما عاش أولادي إنْ صار الدّمُ ماءَ

باسم النبريص

على أرض الإبادة، يريدون محونا، بالقتل وبالتهجير. هذا هو حلّهم النهائي لنا. ولولا صمود واستبسال المقاومة في غزة، لحقّقوا حلمهم، وانتهى الأمر من شهور.

أريد في هذه الكلمات الضئينة أن أنحني لجيل أولادنا الفقراء، جيل الحصار والحرمان، وجيل الإرادة. كل ما كتبت وساكتب، لن يوفيهم أدنى الحق. هؤلاء هم جدارنا الأخير وحائط صدّنا، يواجهون حرب القوى الفتّاكة عليهم، وهم بضعة ألوف.

من قال إن زمن البطولات انتهى؟ من قال إن المعجزة لا يمكن أن تخرج من إهاب الشحّة؟ أنها لا يمكن أن تنتصر في زمن البنوك الكبرى؟

نتكلّم ونستدعي رموز المقاومة وأبطال التاريخ القديم والحديث، لنشبّه أولادنا الحالّين بهم. وهذا على حسن مقصده، خطأ. فالحق أن أولادنا فاقوا جميع الرموز في صلابتهم وإيمانهم وتعاملهم مع العدو الأعلى تسليحاً في الكوكب. إننا والحال كذلك، شهود هذه الملاحم التي لا سابق لها، والتي لا يعرف أحد عنها اليوم إلا النزر اليسير. إنهم يكتبون تاريخنا، بدمهم وبشراسة استبسال الضعيف أمام المفتري.

وحتى اللحظة، وإلى أجل غير مسمّى، سيبقى ما نكتب، أياً كان جنسه، عاجزاً أمام ما يحدث من ملاحم.

مقاتلونا يبدعون، وكتابنا يكتبون، وشتان بين قوتَي المداد والدم.

■■■

> كي لا تبقى أجيالٌ من شعبك كبش فداء عند الإمبرياليّين للأبد

مع استمرار الإبادات، تُصبح أقلّ قدرة على تحمُّل الألَم. ومع زيادة تركيز الوعي، تكاد تمرض فيزيائيّاً، لأنّ العدوّ أيضاً في العائلة. ولأنّ ما ترى هو زمنٌ وثائقي لا خيال، تكثر الانفجارات في الرُّوح، حتى لا تعود أنتَ ما كنتَ. أهلكَ في الجحيم، وأنتَ الآن نسخةٌ شَرِسة من نفسكَ. توُدُّ أن تصرخ في الشارع الفلمنكي والمكتبة، مُعلناً أنّ زمنَ الغناء في الشعر انتهى.

مُعلناً: أنا وليُّ كلّ هذا الدّم. ما عشتُ وما عاش أولادي إنْ صار الدّمُ ماءَ.

إنّ من حزم أحفادك بُرهة طفولة، حين قلبَهم إلى جيل نكبة جديد، لا يستحقّ أن يُواصل التنفّس. من جعلهم يأكلون رغيفَ علفِ الحيوانات القاسي على المضغ والبلع، لا يستحقّ أن يكون إلاّ عدواً، ولو كان من نفس الدّين والجغرافيا.

الدّمُ بالدّم، حتى لو تضاعف الأعداءُ عدداً. هذا هو منطق الشّعر لا السياسة، لأنّ الشاعر هو مستحيل الممكن السياسي.

كيف لأمثالك أن ينامُوا، وواحدةٌ من جاراتك تستيقظ فجراً من نومها في خيمة النزوح، هناك في المواصي، لتجد نفسها بين جنازير الدبّابة؟ أيّ خيال يطاول هذا الواقع المِيتا خيالي؟

أنتَ وليُّ هذا الدّم، كي لا تبقى أجيالٌ من شعبك كبش فداء عند الإمبرياليّين للأبد.

(شاعر فلسطيني
مُقيم في بلجيكا)

متابعة

سمر يزبك ونجوان درويش في القائمة النهائية

متوسط ألبير كامو 2024

تُمنح الجائزة لشخصية ثقافية بارزة في أحد المجالات الإبداعية، أثّرت من خلال أعمالها وما تجسّده من قيم إنسانية في مجتمعات المتوسط

برشلونة ـ **العربي الجديد**

في عام 2016 قرّرت مؤسّسة «Trobades Literaries Mediterranies» (لقاءات المتوسط الأدبية)، وبلدية سانت لويس في جزيرة منورقة الأندلسية الإسبانية الواقعة في البحر الأبيض المتوسط، ومؤسّسة «ألبير كامو» في الجزيرة، إنشاء جائزة تعبّر عن علاقة الكاتب والروائي الفرنسي (صاحب «نوبل للآداب» عام 1957) بالمتوسط، باعتبار أنّ عائلته من طرف أمّه كانت من الجزيرة، إضافة إلى تسليط الضوء على منورقة، بوصفها مكاناً للتمازج الثقافي والإبداعي والحضاري.

وبالفعل في عام 2017، تأسّست جائزة «متوسط البير كامو» Premi Mediterrani Albert Camus التي تمنح إلى شخصية ثقافية، كل عامين، من حوض البحر المتوسط، أسهمت من خلال كتابتها الإبداعية في نشر قيم الحب والعدالة والحرية والمساواة في مجتمعات البحر المتوسط، على هامش لقاءٍ سنوي بين مثقفين ومبدعين وكتّاب وفنانين وموسيقيين ومصورين من مختلف بلدان العالم، في جزيرة منورقة المتوسطية، لمناقشة التحديات التي تتعرض لها مجتمعات البحر الأبيض المتوسط، وخلق مساحات حُرّة تقوم على أساس المعرفة المتبادلة والعدالة والحرية.

تحوّل اللقاءُ السنوي إلى حدث فكري متوسطي استقطب أسماء بارزة في عالم الفكر والشعر والآداب والفنون والموسيقى من مختلف بلدان العالم، وصارت جائزة «ألبير كامو المتوسطية» التي تُمنح خلال اللقاء، كل عامين، إلى شخصيّة في مجالات الفكر والفن والأدب، من أبرز الأحداث الثقافية على ضفّتي البحر المتوسط الشرقية والغربية.

بين الثالث والخامس من مايو/ أيار المُقبل، سيجري الإعلان عن جائزة «متوسط ألبير كامو» التي ستمنح هذا العام، على هامش اللقاء السنوي، لشخصية واحدة من بين ست شخصيات ثقافية وصلت إلى اللائحة النهائية من تخصّصات متنوّعة هي: الفكر، والأدب، والصحافة، والفنون التشكيلية، والفنون البصرية، والموسيقى. وستختار لجنة الجائزة المُؤلّفة من نقاد وكتّاب وشعراء شخصيّة واحدة في حقل من حقول الإبداع هذه.

ولعل الحدث الأبرز هذا العام هو أنّ القائمة النهائية للجائزة المتوسطية ضمّت كاتبين عربيّين، هما الزميل الشاعر الفلسطيني نجوان درويش عن فئة الأدب، والزميلة الكاتبة الصحافية والروائية سمر يزبك عن فئة الصحافة. أمّا المرشحون الآخرون فقد كانوا الموسيقية الإسبانية سيلفيا بيريز كروز عن فئة الموسيقى، والفيلسوف والمفكر الكاميروني أشيل مبيمبي عن فئة الفكر، والفنّان الفرنسي من أصل جزائري قادر عطية عن فئة الفنون التشكيلية، والفنان التشيلي الفريدو جار عن فئة الفنون البصرية. وسيتم الإعلان عن الفائز من بين هذه الشخصيات آخر أيام اللقاء، والذي يأتي بعنوان «إعادة التفكير في العالم».

> مُنحت سابقاً إلى إدغار موران ومنى حاطوم وماتياس إينار

أسماء كبيرة نالت هذه الجائزة، فقد مُنحت في دورتها الأولى عام 2018 للفنانة اللبنانية الفلسطينية، بريطانية الجنسية منى حاطوم (1952) عن فئة الفنون التشكيلية، وفي دورتها الثانية عام 2020 منحت للفيلسوف الفرنسي إدغار موران (1921) في حقل الفكر. أمّا نسختها الثالثة عام 2022، فكانت من نصيب الروائي الفرنسي ماتياس إينار (1972) عن فئة الأدب، وهي الدورة نفسها التي حضر بين مرشحي قائمتها النهائية أسم الفيلسوفة الأميركية جوديث بتلر. إضافة إلى الشخصيات الست التي تصل إلى القائمة النهائية للجائزة كل عامين، جرت العادة أن تجري دعوة العديد من الشخصيات الأدبية والشعراء والروائيين والمفكرين والمبدعين من التخصصات كافة. وستشهد دورة هذا العام، على سبيل المثال، حضور الفيلسوف الإسباني خافيير غوما، والكاتبة السنغالية ن. جون بول، والعازف البرازيلي ليبف.

في ظل ما تشهده منطقة البحر الأبيض المتوسط من حروب استعمارية جديدة وديكتاتوريات وإبادات تتجسد في شكلين: الإبادة الجماعية التي ترتكبها «إسرائيل» في غزّة، وموت المهاجرين بين أمواجه التي تتلاطم، تشكّل هذه الجائزة، بحسب القائمين عليها، دعوة إلى تأسيس ثقافة جديدة، قائمة على أساس الحرية والعدالة والقيم الإنسانية.

منى حاطوم، لحظة استلامها الجائزة في دورة عام 2018

فعاليات

ضدّ الإمبريالية عنوان المظاهرة التي تدعو إليها منصة **التضامن مع فلسطين** في إشبيلية، عند منتصف نهار الاثنين المُقبل. تنطلق المظاهرة من ساحة «التحرير»، وصولاً إلى مركز قيادة الشرطة، وترفع شعارات تُندّد بالنظام الإمبريالي العالمي الذي يُجسّده كيان الاحتلال الإسرائيلي في فلسطين.

عند الخامسة من مساء السادس عشر من نيسان/ إبريل الجاري، تُنظّم «جامعة المكسيك المستقلّة» بالتعاون مع «معهد البحث الأدبي» في العاصمة المكسيكية، ندوة بعنوان **غرنيكا ـ غزّة** يشارك فيها كلّ من الباحثين: **كلاوديو البرتيني** و**جونوين ديار**، وتديرها **سلفانيا رابينوفيتش**. تتناول الندوة عدوان الإبادة الجماعية على غزّة ومجازر الاحتلال التي تُشبه مجزرة غرنيكا النازية.

بين 22 و24 نيسان/ إبريل الجاري، تُعقد في كلّية الآداب بـ«جامعة الكويت»، الندوة السنوية لدوريّة **تبيُّن** للدراسات الفلسفية والنظريات النقدية، الصادرة عن **المركز العربي**. تُخصّص الدوريّة ندوتها للخوض في تشخيص دقيق لمنزلة فلسفة القانون والوقوف على إسهاماتها المعرفية عبر التاريخ.

حتى الثالث عشر من الشهر الجاري، يستمرّ في «غاليري صالح بركات» ببيروت معرض **إنها لعبة أرقام** لـ **هادي سي**. بالأرقام وحدها، يُحاول الفنّان اللبناني خَلْق الأشكال والتجهيزات التي يصبو إليها، ويُعبّر من خلالها عن قلقه وإحساسه بالظُّلم وخساسة المُمارسات البشرية، إضافةً إلى توثيق الحوادث الواقعية.